مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد: 04 العدد: 02 سبتمبر 2021 ص ص: 598-619
ر ت م د (ISSN): 2602-618X / ر ت م د إ (E-ISSN): 2710-8031

ثورة ابن الشريف الدرقاوي في بايلك الغرب 1805- 1813م

Ibn al-Sharif al-Darqawi's revolt in West Baylak 1805-1813

قدور بوجلال ♦

جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر boudjellal.kadour@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 2021/05/16 تاريخ القبول: 2021/06/09 تاريخ النشر: 2021/09/30

الملخص باللغة العربية:

إنّ الحكّام العثمانيون لم يتركوا وسيلة إلاّ واتّبعوها للوصول إلى هدفهم وهو المحافظة على استقرار حكمهم بإيالة الجزائر، فبداية من النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي كانت السمة الرئيسية التي طبعت سياستهم هي العنف، ومحاولة السيطرة الفعلية على البلاد بالقضاء على أيّ خطر يهدّد مصالحهم في الحصول على النفوذ والموارد المالية، الأمر الذي ولّد صراعًا حادًّا بين الحاكم والمحكوم ونشر الفوضى وعدم الاستقرار بالبلاد. كما أنّ الإجراءات العقابية التي اتّخذتها السلطة ضدّ العلماء والمرابطين وشيوخ الطرق والزوايا على السواء انعكس سلبًا على علاقة العلماء والمرابطين من جهة أخرى مع السلطة، وكان كلّ عمل تأديبي له عواقبه الوخيمة على استمرار العلاقة بين الطرفين، بل أدّت إلى اتّساع الهوة وتعميق الفجوة بين الطرفين في ظلّ تنامي نفوذ المرابطين وشيوخ الزوايا ، ولم تكن السلطة الروحية تملك إلاّ خيار المواجهة والتصدّي.

وسنحاول فيما يوالينا من صفحات الإحاطة بالمواقف المعادية التي تبنتها الزعامات الدينية من سياسة الحكام الداخلية وتبيانها، خاصة وأنها وصلت إلى حدّ القطيعة مع مطلع القرن 13هـ/19م، بل وصلت إلى درجة الثورة ضدّ النظام العثماني بعد تزعم شيوخ الطرق الصوفية والزوايا لها، والتي مثّلت تهديدا للوجود العثماني بسبب اتّساع رقعتها وتنظيمها، باعتبارها ثورات شعبية مدعومة بقوة روحية ومادية، وقد اختلفت هذه الثورات في غايتها وأساليبها ومن أخطرها الدرقاوية، حيث شملت رقعة واسعة امتدّت شرقا وغربا، استمرّت لعدّة سنوات مهدّدة الوجود العثماني.

الكلمات المفتاحية: ابن الشريف الدرقاوي؛ إيالة الجزائر؛ الدرقاوية؛ بايلك الغرب؛ ثورة.

♦ المؤلف المرسل

Abstract: The Ottoman rulers had proceeded by different ways to maintain the stability of their control over Algeria. Starting from the second half of the eighteenth century AD, the main feature that characterized their policy was violence, and the attempt to effectively control the country by eliminating any danger threatening their interests in obtaining Over power and financial resources, which generated an intense conflict between the ruler and the ruled and spread chaos and instability in the country. In addition, the punitive measures taken by the authority against the scholars, the marabout, the sheikhs of the sects and the Zawiyas.

In this paper, we will try to highlight and clarify the hostile positions adopted by the religious leaders from the policy of the internal rulers, especially as they reached the point of estrangement at the beginning of the 13th century AH / 19AD, and even reached the point of revolution against the Ottoman regime.

These revolutions differed in their purpose and methods, and among the most threatening of them was the Dergawi, as it included a wide area that extended east and west, which lasted for several years threatening the Ottoman presence.

Keywords: Ibn al-Sharif al-Darqawi; Eyalat Algeria; Darkaouia; Baylak West; Revolution.

مقدمة:

أطلّ القرن التاسع عشر الميلادي على اندلاع أكبر وأخطر ثورة شعبية ضدّ السلطة العثمانية في إيالة الجزائر منذ مجيئهم إليها، ألا وهي الثورة التي قادتها الطريقة الدرقاوية[1]

1 : الدرقاوية: طريقة صوفية مغربية متفرّعة عن الشاذلية، وأوّل من دعا إليها هو الشريف إدريس في الشمال الغربي من مدينة فاس، والذي كان يُدعى علي بن عبد الرحمن الجمل، وقد انتشرت الطريقة في كلّ من فاس وسوس الأقصى، وساحل دكالة والمناطق الغربية من الجزائر كوهران ومستغانم وتلمسان، تميّز أتباعها عن غيرهم بلبس الرث من الثياب وحمل العصا والابتعاد عن الشؤون الدنيوية، للمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى:

Louis Rinn , Marabouts et Khouans, Adolphe Jourdan, Alger, 1884, p-p : 234-235.

وأيضا:

أو أتباع الشيخ مولاي العربي الدرقاوي[2]، حيث استغلّ دعاة الطريقة الدرقاوية وضع الجزائريين المتردّي فازدادت شعبيتهم عندهم، وفي الغرب الجزائري أعلنت الثورة بقيادة عبد القادر بن الشريف الدرقاوي الذي أصبح يشتكي إليه الجزائريون ظلم واستبداد النظام العثماني، فمن هو ابن الشريف؟ وما هي ظروف وأسباب ثورته؟ وما مراحلها؟ وما هي آثارها على البلاد والعباد؟

1- التعريف بابن الشريف الدرقاوي:

هو الشيخ عبد القادر ابن الشريف الدرقاوي الفليتي من أولاد بليل المرابطين بقبيلة كسانة البربرية، يعود أصله إلى قبيلة كسانة البربرية[3]، تعلّم بمسقط رأسه ثم التحق بزاوية القيطنة لأخذ العلم على يد مشائخها كالشيخ محي الدين، واتّجه إلى المغرب الأقصى وأخذ من علماء فاس، ثم التقى بالشيخ مولاي العربي الدرقاوي فاتّبع طريقته، وعيّنه هذا الأخير مقدّمًا للدرقاوية بالجزائر[4].

Octave Depont, Xavier Coppolani , Les confréries religieuses musulmanes, Adolphe Jourdan, Alger, 1897, p-p : 503-506.

2 : مولاي العربي الدرقاوي: مؤسس الطريقة الدرقاوية ومنظمها، ولد بتطوان سنة 1150هـ/ 1737م، عمل مدرّسًا بفاس وكان ملازمًا لدروس الصوفي الكبير الشيخ علي بن عبد الرحمن الجمل، وبالرغم من أنّه قد أُعتبر مؤسِّس الطريقة ومنظمها بعد وضعه لأسسها على قواعد صحيحة ونشره لتعاليمها، إلاّ أنّها تُنسب لأحد أسلافه وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف المكنى "بأبي درقة"، و"الدرقة" لقب كان يطلق على العربي الدرقاوي وهي الدرع التي يحتمى بها زمن الحروب، لقد أسس العربي الدرقاوي زاويته ببوبريح من بني زروال بضواحي مراكش اجتمع فيها أتباعه ومريدوه الذين كثر عددهم حول طريقته الدرقاوية، حيث أوصاهم بتجنّب ذوي السلطة والحكم والتشدّد في التقشف وغيرها من التعاليم الخاصة بالطريقة، هذا وقد توفي العربي الدرقاوي سنة 1239هـ/ 1823م ودُفِن بزاويته في جبل بوبريح بعد أن تخرج على يده عشرات الأتباع والمريدين. فيلالي مختار الطاهر، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، دار الفن الغرافيكي للطباعة والنشر، الجزائر، د. ت، ص-ص: 53- 55.

3 : Adrien Delpech, "Resume historique sur le soulèvement des derk' aoua de la province d'Oran", R. A, N : 18, 1874, p : 40.

4 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، تاريخ بايات وهران المتأخر أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص: 49.

هذا وقد قال فيه صاحب أنيس الغريب والمسافر من كونه: "كان رجلا عالمًا متفنّنًا في جميع العلوم ورعًا زاهدًا، والناس يشيرون إليه بالصلاح لا غير، إلى أن زغت به نفسه وباع آخرته بدنياه، ثم أصبح بلاهما جميعا"[5].

وعند رجوعه إلى الجزائر أسس زاويته في أولاد بليل لاستقبال الأتباع وتلقين الأذكار والأوراد وتعليم مبادئ الدرقاوية[6]، فكثر أتباعه خاصة من القبائل الصحراوية وزاد احترامهم وتقديرهم له، وتوالت عليه الهدايا والهبات والزيارات، وكلّما كانوا يلتقون به يشتكون له من ظلم الأتراك وجورهم فكان يعدهم بالفرج القريب حاثّهم على الصبر، ومؤكّدًا أنّ ذلك الوضع لن يدوم[7]. وهذا ما كان يقصّه على شيخه مولاي العربي الدرقاوي إذ قال له: "يا سيدي إنّ بوطننا قومًا يقال لهم الترك لا شيء لهم من دعائم الإسلام، ويظلمون الناس ولا يعبئون بالعلماء والأولياء، نسأل منك أن يكون هلاكهم على يدي لتستريح منهم العباد وتطهر منهم البلاد" فقال له: "عليك بجهادهم وقتالهم، وأنّ الله ينصرك عليهم بكمالهم"[8].

وفي رواية أخرى للمزاري ومسلم بن عبد القادر كان يقول له شيخه: "أنصرهم والله ينصرك عليهم"[9]، وقد تشجّع عبد القادر بن الشريف الدرقاوي بهذا الإذن واستعدّ للثورة ضدّ الأتراك في بلاد الأحرار أين تجمعت حوله قبائل الصحراء وساندته[10]، خاصة وأنّه أغراهم بما كان يظهره لهم من شعوذة ويعدهم به من نصر قريب، فأخذوا عنه الورد وبايعوه فاتّجه بهم نحو البطحاء رافعًا راية الحرب ضدّ الأتراك محلّلاً دمائهم وأموالهم[11]،

---

5 : "المصدر نفسه"، ص-ص: 71-72.

6 : مختار بونقاب، انتفاضة درقاوة في بايليك الغرب الجزائري 1802- 1816، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، جامعة معسكر، العدد: 03، 2008، ص: 135.

7 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 72.

8 : محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص: 208.

9 : الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود: في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج1، تحقيق: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 1990، ص: 303.

10 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 72.

11 : يحكى عن الشيخ ابن الشريف الدرقاوي أنّه كان يلبس الخرقة المرقّعة، ويُعلِّق البوش والقرون معه تقليدًا للشيخ مولاي العربي الدرقاوي. ينظر: محمد بن يوسف الزياني، "المصدر السابق"، ص: 208.

وفي هذا السياق يذكر المزاري: "السيد عبد القادر بن الشريف القائم بالغوغاء والعامة على أهل الملك والتصريف...وابتدع أمورا ينكرها الشرع، واقتدى به في ذلك الجلّ من الناس وأخذ عنه كلّ من هو في عقله في غاية الإخساس خصوصا أهل الصحراء، فأذعنوا له إلى أن قهرهم قهرا، وصارت عامة درقاوة تجتمع إليه فيخرج بهم إلى الصحراء فيجتمعون عليه حتى أخذت عنه جميعها الورد وهو في سرور، وصارت كلّ شيعة تهدي إليه الهدايا ويأتون إليه من كلّ فج بالعطايا، ويشتكون إليه ضرر المخزن وماهم فيه من أداء المغارم، ولم يعلموا أنّهم سيرجعوا إلى انتهاك المحارم"[12].

1.1- مراحل ثورة ابن الشريف الدرقاوي:

تُعدّ الثورة الدرقاوية من أكبر وأخطر الثورات التي شهدها العثمانيون منذ بداية تواجدهم بالجزائر[13]، وهذا بعد انتشار الطريقة الدرقاوية بالإيالة خاصة بالناحية الغربية منها أين لعب المقدّمون والأتباع دورا كبيرا في تأسيس زوايا تابعة للزاوية الأم، مزوّدين بتعاليم وقواعد السلوك من مؤسِّس الطريقة مولاي العربي الدرقاوي، وممّا يلفت الانتباه هو سرعة انتشار الطريقة الدرقاوية في الجزائر، والذي يعود إلى اعتمادها على الريف كمجال لنشر تعاليمها وأفكارها مستغلّة بعده عن الحكم المركزي من جهة، والمستوى العقلي لسكان الريف من جهة أخرى[14].

كان هذا الإطار العام الذي وُجِدت فيه الطريقة الدرقاوية بالجزائر وقيام ابن الشريف الدرقاوي بتبنّي هذه الطريقة ونشر تعاليمها في الغرب الجزائري، وازدياد نفوذه وشعبيته والتفاف السكان حوله، حيث رأوا فيه منقذهم من الوضع الاقتصادي المتأزِّم ما أدّى إلى تجنيد السكان في الثورة ضدّ العثمانيين.

2.1- مرحلة المقاومة والانتصار:

لقد استغرقت مرحلة الإعداد والتحضير للثورة وجمع أكبر عدد من الأنصار مدّة خمس سنوات 1800- 1805م، ولمّا أتمّ استعداده وجمع العدّة والعتاد أعلن ابن الشريف الثورة

---

12 : الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص-ص: 302-303.

13 : زينب جعني، ثورة ابن الأحرش في بايلك الشرق 1800- 1807، عصور الجديدة، جامعة وهران، العدد: 18، خريف-أكتوبر 1436هـ- 1437هـ / 2015، ص: 130.

14 : محمد مكحلي، ثورات رجال الزوايا والطرقية في الجزائر خلال العهد العثماني 1807- 1827، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس، 2003- 2004، ص: 172.

على العثمانيين، مستغلاً هزيمة إحدى الحاميات التركية أمام قبائل الأنجاد المتمردة ضد السلطة العثمانية أيضا. وتوجّه برجاله نحو البطحاء قرب وادي مينا حيث كان معسكره، وهنا وقعت اصطدامات بينه وبين رجال الباي مصطفى العجمي وسمّيت هذه الواقعة بمعركة فرطاسة[15].

وكانت هذه الواقعة بداية لتمرّدات درقاوة في الغرب الجزائري، بحيث لمّا وصل ابن الشريف إلى واد مينا أَذِن لأتباعه نهب أموال وممتلكات محلّة الباي والقبائل المؤيدة لها، ولمّا بلغ الخبر للباي جمع عسكره وعاد طالبًا إياه فالتقيا بفرطاسة -واد الأبطال حاليا- عام 1805م، حيث اشتدّ القتال بينهما وهُزِم الباي وفُرّق جيشه الذي طارده الدرقاوي حتى أسوار مدينة معسكر[16]، وقد سجّل هذه المعركة الشاعر الشعبي الشيخ بوعلام بن الطيب السجراري فقال:

كِي قِصَةْ الأَجْوَادْ مَعَ أَتْرَاكْ النُوبَةْ يَوْمَ أَنْ فَزَعَهُمْ ابْنْ الشَرِيفْ أُوجَاوْ
انْعَقْدُوا غَاشِي الأَحْرَارْ عَقْدَ إِمْحَبَةْ فِي فَرْطَاسَةْ شَاوْ إِنْهَارْ وَإِتْلاَقَـاوْ
بِالْسَيْفِ أُوْ نَارِ المَشْطِ أُودَقْ الحَرْبَةْ مَلْهِيهْ أُوْ مِنَا عِيطَا أَعْقِيدْ أَفْنَـاوْا
ذَاكَ أَمْقَعْشَمْ ذَاكَ يْهُومْ بِالْحَرْ بَابَـهْ وَإِفْرَايَسْ الأَتْرَاكْ إِعْلَى الطَرِيقِ إِبْقَاوْا
انْغَلَبُوا الأَتْرَاكْ أُوْ سَلَمُوا فِي الضَرْبَهْ أَهْلْ العَدَةْ البَيْضَا كَامَلْ إِتْعَـرَاوْا
خَطْ الخُوجَةْ خَطْ إِحْدِيثْ كَانْ أُوْ صَارْ البَاشَا مَبْهُوتْ صَادْفَتَهْ خَلْعَـةْ[17]

وممّا يلفت الانتباه هو البيت الأخير من هذه القصيدة فبعد انتصار ابن الشريف الباهر في هذه الواقعة اعترف علماء البلاط في إيالة الجزائر العثمانية بذلك، واعترفوا بالكارثة وضخامة خسائر الجيش التركي في الأموال والأنفس، فها هو العالم "حسن خوجة"[18] يعترف بذلك قائلاً في قصيدته النونية التي أنشدها:

---

15 : Adrien Delpech, Op. cit, p: 42.

16 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 73.

17 : ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، الجزائر، 1973، ص-ص: 40- 41.

18 : حسن خوجة: من أسرة علمية عريقة عُرِفت باسم أسرة بن خوجة المستغانمية اشتهرت بالعلم والتقوى، وهو محمد بن حسن عالم وفقيه وأديب، كان كاتبًا في ديوان الإنشاء للباي محمد بن عثمان الكبير، وألّف كتابًا أسماه: "در الأعيان في أخبار مدينة وهران"، هذا وقد عاصر حسن خوجة حروب درقاوة التي نظّم بمناسبتها العديد من القصائد، ليتولّى بعدها أيضا وظيفة الكتابة لقائد فليتة حسن بن

فَرْطَاسَةُ يَومَهَا تَرَى الجُنُودَ بِهِ مَا بَيْنَ قَتْلَى وَأَسْرَى غَيْرَ نَاجِينَا
فَالْبَايْ جَاءَ بِجَيْشٍ لاَ نَفَادَ لَهُ بِهِ يُرِيدُ لِقَاءَ العَدُوِ بَاغِينَا
فَلَمْ يُحَقَقْ لَهُ سَعْيٌ وَلاَ أَمَلٌ بَلْ جَاءَ جُنْدُهُ صِفْرَ الكَفِ بَاكِينَا
فَالْيَوْمَ لابْنْ الشَرِيفِ عِزٌّ فِيهِ عَلَى بَايِ الأَعَاجِمِ لَوْلاَ الدِينُ لاَ دِينَا[19]

كما يذكرها مسلم بن عبد القادر الوهراني في قصيدة شعرية يشيد فيها بالباي مصطفى، وما جهّزه من قوّة لمواجهة الدرقاوي الذي يذكره باحتقار:

فَيَوْمَ فَرْطَاسَةُ يَوْمٌ كَبِيرٌ ذُلَّ فِيهِ العَزِيزُ وَعُزَّ الحَقِيرُ
لَقَدْ هَيَّأَ مُصْطَفَى جَيْشًا كَثِيرْ تُرْكًا وَمَخْزَنَ المَلِكِ الكَبِيرِ
فَلَمْ تَكُنْ سَاعَةٌ وَانْهَزَمُوا مِنْ جَيْشٍ قَلِيلٍ هَيَّأَهُ الفَقِيرُ[20]

وفي نفس السياق وصف مسلم بن عبد القادر هذه المعركة وما نتج عنها بقوله: "فأمسى الباي ومخزنه في نكد، وأصبح الدرقاوي وأتباعه في رغد"[21]، وقد مات في هذه المعركة خلق كبير منهم كاتِبَا الباي الحاج أحمد بن هطال التلمساني وأبو عبد الله محمد الغزلاوي[22]. وفَرَّ الباي إلى معسكر على إثر الهزيمة على فرس من دون سرج[23]، ثم غادرها منها مساء نفس اليوم ليدخل وهران وهو خائف وجل بما حلّ به وجيشه على يد أتباع ابن الشريف الدرقاوي[24].

ولمّا استفحلت ثورة الثائر ابن الشريف الدرقاوي وعظم أمره وشأنه، وَجَّهَ أنظاره إلى مدينة وهران حيث عمل على إثارة السكان واستطاع جلب عدد كبير من الأنصار لمهاجمة الأتراك العثمانيين بها، مُناديًا كلّ قبائل الغرب إلى دعمه ومبايعته قائلا: "أننا نزعنا عنكم

موسى الباهي الذي وُلّي فيما بعد بايًا على وهران. للمزيد ينظر: الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص-ص: 97- 98.

19 : الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص: 304.

20 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 76.

21 : "المصدر نفسه"، ص: 73.

22 : الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص: 304. ولتفاصيل أكثر ينظر: مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 75.

23 : مختار بونقاب، "المرجع السابق"، ص: 138.

24 : وللإشارة فلقد كان هروب الباي مصطفى العجمي إلى معسكر يوم الأحد 08 ربيع الأول من سنة 1220هـ/ 1805م، وفي نفس اليوم اتّجه نحو مدينة وهران. لتفاصيل أكثر ينظر: مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص، ص: 50، 73.

ما كنتم فيه من الحقر والذلة والمسكنة وأداء المغارم والجزية الثقيلة، والمؤن الكثيرة الجليلة الذي جمع ذلك هو حرام على من انتظم بالدخول في سلك الإسلام، وقد قطعنا دابر الترك الظلام وأتباعهم الشرار اللئام، فالواجب عليكم مبايعتنا والإذعان لنا وطاعتنا"[25].

وممّا زاد من شعبية ابن الشريف لجوئه إلى إقناع الناس بصحّة وشرعية دعوته وثورته باعتماده مختلف الوسائل، حيث ادّعى أنّه المنقذ لهم وبواسطته سيمكِّنهم الله من العثمانيين[26]، فقد جاء في دليل الحيران أنّه خاطب الرعيّة قائلا لهم: "قد نزعنا عنكم ظلم الترك والذل، والمسكنة والمغارم والمكوس فالواجب عليكم مبايعتنا"[27]. في حين يذكر مسلم بن عبد القادر الوهراني أنّه كاتب القبائل لتُعلن الجهاد ضدّ العثمانيين قائلا لهم: " إنّا نرغب عنكم ما كنتم فيه من أداء الجزية التي هي حرام على المسلم، وقطعنا دابر الترك وأتباعهم، فالواجب مبايعتنا والجهاد معنا فيمن أبي عن طاعتنا"[28].

ولقد كان لهذا النداء صدى كبير لدى القبائل، حيث تمكّن بفضله من الحصول على دعم وتأييد العديد منها، فانضمّت إليه قبائل المخزن نفسها مثل قبيلة الحشم، الزمالة، والدوایر وغيرها[29]، وبهذا يكون ابن الشريف الدرقاوي قد اكتسب مساندة ومؤازرة بل وحتى احترام الكثير من سكّان المناطق الريفية، وأصبحت كلمته مطاعة فطالب أتباعه بمهاجمة الحاميات التركية، والزّحف إلى وهران قصد فتحها وأملاً في دخولها.

وحسب إشارة الأستاذ مختار بونقاب أنّه من الأسباب التي دفعت بتلك القبائل لمساندة ابن الشريف هو محاولتها التخلّص من الضرائب الثقيلة التي كان قد فرضوها الأتراك عليها من قبل، إلى جانب تأكّد القبائل من انكسار شوكة الأتراك العثمانيين وضعف قوتهم بعد انهزامهم في معركة فرطاسة[30]. في حين يرى المزاري أنّ سبب ذلك

25 : الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص: 306.

26 : وللإشارة فلقد ذكر المزاري قصة مفادها أنّ ابن الشريف قَدْ مَرَّ بغريس فسمع امرأة تُنادي على أخرى "تركية" وكان ذلك اسمها فغضب من ذلك، وأبدل اسمها فورا بـ: "عربية"، وقال: ما عدوّنا إلاّ الترك بأتباعهم وحشومهم وأشياعهم، وهذا دليل على مدى الحقد والكراهية التي كان يكنّها ابن الشريف للعثمانيين. ينظر: "المصدر نفسه"، ص: 306.

27 : محمد بن يوسف الزياني، "المصدر السابق"، ص: 209.

28 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 74.

29 : Adrien Delpech, Op. cit, p: 44.

30 : مختار بونقاب، "المرجع السابق"، ص: 138.

يعود إلى خوف البعض من تلك القبائل من إتلاف الدرقاوي لمحاصيلهم الزراعية، خاصة وأنّه كان فصل الصيف ووقت الحصاد فانضمّوا إليه وساندوا ثورته، وفي هذا الصدد يقول: "وكان قدومه- أي ابن الشريف- لوهران في الصيف في إبان الحصاد، فسارت إليه وأطاعته جميع العباد لا عربي ولا مخزني ولا شريف القدر ولا دني خشية منه على زرعهم ومالهم وضرعهم، لكون الجنود مضنة الفساد والضلال والنكاد، لا سيما عادة الجنود السلطانية المتوجة بالتيجان الشيطانية"[31].

وبعد أن عزّز ابن الشريف الدرقاوي موقعه العسكري اتّخذ من مدينة معسكر مقرًّا له ولأسرته، وقد ألقى بها القبض على مبعوث الباي الفارس القائد أبو محمد بالحضري بن إسماعيل البحثاوي وسجنه[32]. ووجّه حينها أنظاره إلى وهران فزحف إليها بجيوشه، فكان في طريقه إليها لا يمرّ بأيّة أرض إلاّ ويتلف الزرع ويدمّر العمران معاقبة لمن رفض الانضمام إليه، وأثناء وصوله "لسيق" بأرض الغرابة فرَّ منه أهلها بعضهم للجبال وبعضهم للغابات والشعاب، ومنهم من دخل لغابة "الجيرة" التي كانت هي الأخرى طريق ابن الشريف، حيث أوقع بمن هرب إليها بين القتل والأسر والسبي[33].

وأثناء حصار ابن الشريف الدرقاوي لوهران اضطرّ هذا الأخير إلى الانسحاب بعد أن أوشك على الاستيلاء عليها، نتيجة تحالف أهل المدينة لقتال جيش الدرقاوي والدفاع عن أنفسهم، والتصدّي لأيّ محاولة من جيشه في اختراق أبواب مدينتهم رغم قلّة عددهم ونقص عدّتهم، حيث انقطعت كلّ الطرق والاتصالات بين وهران والجزائر، ماعدا الطريق البحري الذي كان المنفذ الوحيد لوصول المساعدات والإمدادات العسكرية للمدينة التي حاصرها ابن الشريف الدرقاوي[34].

3.1- مرحلة التراجع والانهزام:

بدأت هذه المرحلة بوصول الباي الجديد محمد بن عثمان المقلش عام 1220هـ/ 1805م والذي عُيّن مكان الباي المعزول مصطفى العجمي، فحين وصول الباي المقلش

---

31 : الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص: 307.

32 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، المصدر السابق"، ص: 74. — الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص:306.

33 : وللإشارة فقد ذكر المزاري أنّ ارتكاب ابن الشريف لتلك المجازر في غابة الجيرة قد أثّر على سكّان المنطقة، لدرجة أنْ سُمِّيَ الموقع ب: "شعبة النواح"، وأُطلِق عليه هذا الاسم لكثرة بكاء الناس، ونواحهم على ما وقع لأهليهم وأنفسهم بها. ينظر: الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص: 307.

34 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 75.

إلى وهران وَجَد ابن الشريف الدرقاوي محاصرًا لها من كلّ جهة ومكان، وحتى أبوابها الخمسة وجدها مغلقة، فأمر بفتحها واستطاع من إزالة الحصار الذي دام ثمانية أشهر على المدينة حتى أصبح الناس أحرارا في دخول المدينة أو الخروج منها[35]. وليبدأ بعدها الباي في مساعيه السياسية والدبلوماسية لإيقاف الثورة أو للتخفيف من آثارها، حيث طلب من المولى سليمان سلطان المغرب التدخّل، والذي بعث بشيخ الطائفة الدرقاوية مولاي العربي الدرقاوي إلى تلميذه ابن الشريف الدرقاوي، لكن هذا الأخير شكا لشيخه ضرر الأتراك وجورهم بالرعية فتوقف الشيخ وصدر عنه ما يشجّع على مواصلة الثورة ضد الأتراك[36]، وهو الأمر الذي أشار إليه المزاري بقوله: "... إلى أن جاءه –الهاء تعود على ابن الشريف- شيخه من المغرب وحضر المقاتلة وشدة الحروب مع جيش تلميذه... وأزعجه قتال المخزن وما فيه من الأعيان، بعد أن أمرهم بحمل الشواقير والفيسان، وأنهم في يومهم يدخلون وهران ويصيرونها بالهدم والتخريب مغارات للفيران"[37].

ويسايره في ذلك صاحب أنيس الغريب والمسافر الذي أشار إلى وصول الشيخ مولاي العربي الدرقاوي إلى ابن الشريف "فشكا إليه عبد القادر بن الشريف ما نزل بالفقراء المنتسبين إليه، وبسائر الرعية من عسف الترك وجورهم، وانتهائهم في ذلك إلى القتل والطرد عن الوطن، فتوقف الشيخ وربّما صدر منه بعض تقبيح لفعل الترك وما هم عليه، فازدادت العرب بذلك تظاهرًا على الترك وتكالبًا عليهم"[38].

ويفهم من هذا القول أنّ وصول شيخ الطريقة الدرقاوية مولاي العربي الدرقاوي إلى تلميذه ابن الشريف والتقاءه به لم يزد الثورة إلاّ لهيبًا، ففي موضع آخر يذكر مسلم بن عبد القادر الوهراني أنّ ابن الشريف كانت الناس تقدِّم له الهدايا والعطايا ويشتكون إليه من أضرار المخزن وكثرة المغارم، فكان يَعِدهم بالفرج إلى أن قام بثورته، وعند التقاءه بشيخه مولاي العربي الدرقاوي شكا إليه ظلم الأتراك وتعسّفهم في أداء المغارم، فردَّ عليه هذا الأخير بقوله: "أنصرهم والله ينصرك، فحصل له بذلك الطمع الكثير"[39].

35 : "المصدر نفسه"، ص-ص: 76-77. - الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص-ص: 308-309.

36 : مختار بونقاب، "المرجع السابق"، ص: 139. ولتفاصيل أكثر ينظر: ابن سحنون الراشدي، "المصدر السابق"، ص-ص: 44-45 (من مقدمة المحقق).

37 : الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص: 309.

38 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 51.

39 : "المصدر نفسه"، ص: 72.

كما نتلمّس ذلك أيضا عند مسلم بن عبد القادر في قوله: "إلى أن قدم إليه شيخه من المغرب وحضر الحرب مع الجيش، ورأى بعينه ما يَسُر فذهب إلى حال سبيله، وتركهم على ما هم عليه"[40].

ومن هنا نرى فشل كلّ المساعي السياسية والدبلوماسية للباي المقلش، حيث جنَّد بعدها هذا الباي قوّته العسكرية للقضاء على جيش الدرقاويين الذين فشلوا في دخول وهران وتراجعوا عنها نحو معسكر، وحين وصولهم إلى سيق قرب سيدي داوود هاجمتهم قبيلة الغرابة للثأر بما فعله بهم من قتل الرجال والنساء والصبيان، فتعرّضوا له بالضرب والنهب والقتل والسبي[41]. ومُنِي في نفس الوقت ذاته بهزيمة أخرى شنيعة على يد قبائل البرجية وأهالي بني شقران بسيدي مبارك قرب وادي هبرة، أين تكبَّد الثائر ابن الشريف خسائر فادحة في الأرواح وتشتُّت قوّاته، فَفرَّ مع قِلّة من جيشه نحو معسكر التي لم يستقبله أهلها[42].

وممّا تجدر الإشارة إليه هو أنّه عند سماع سكّان معسكر بخبر هزيمة ابن الشريف الدرقاوي وما حلّ به على يد قبائل البرجية، قاموا بإطلاق سراح أبو محمد بالحضري بن إسماعيل البحثاوي، الذي كان قد سجنه الدرقاوي، وألقوا القبض على أهل الدرقاوي وأولاده وأتباعه[43].

إنّ عدم اغتنام ابن الشريف الدرقاوي فرصة محاصرة مدينة وهران، وتشتّت قوّاته بسيدي داوود وسيدي مبارك للقضاء على سلطة البايلك سمح لحكومة الدايات بإعادة تنظيم نفسها، وإرسال الإمدادات إلى وهران، وعَزْل ابن الشريف عن أغلب القبائل التي ساندته أول الأمر، حيث اغتنم الباي المقلش الفرصة لتقوية موقعه في البايلك بإرسال رسائل العفو إلى رؤساء قبائل المخزن، فانضمّت إليه الغرابة والدوایر والزمالة، في حين تحالفت قبائل مجاهر وبني عامر مع الدرقاوي[44].

---

40 : "المصدر نفسه"، ص: 77.

41 : الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص-ص: 310- 311.

42 : "المصدر نفسه"، ص-ص: 310- 311. — مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 78.

43 : الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص: 311. وللإشارة فإنّ الباي المقلش طلب من سكّان معسكر بتسليمه نساء الدرقاوي وأهله ففعلوا ذلك، ثم قام الباي بإرسالهم إلى الجزائر عن طريق البحر. لتفاصيل أكثر ينظر: "المصدر نفسه"، ص: 312.

44 : "المصدر نفسه"، ص: 312. — مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 53.

بعد ذلك خرج ابن الشريف الدرقاوي وظهر من جديد، فهاجم محلّة الباي في موقعة وادي المالح عام 1805م إلاّ أنّ جيشه فشل بسبب قوّة جيش الباي المقلش، وبعد ذلك عاود الدرقاويون ومعهم ابن الشريف الهجوم على العثمانيين بقرية سيدي محمد بن عودة لكنّهم انهزموا، ولم يَنجُ من درقاوة سوى من فرَّ إلى قبّة هذا الوليّ، لكون الباي أوصى جنوده باحترامه وعدم التعرّض لمن لجأ إليه بحال من الأحوال[45]، كما تمّ قتل الكثير من جيش الدرقاوي حيث جُمِعت رؤوس القتلى منهم، فكانت أكوامًا على حسب تعبير مسلم بن عبد القادر الوهراني[46] وبُعِث بها إلى مدينة معسكر[47].

وبعد هذه الانتصارات مكث الباي المقلش لمدّة أيام في مدينة معسكر ليأتيه الخبر بظهور الدرقاوي من جديد بمنطقة بني مريانن، فأسرع الباي اتّجاهه وهزمه وكبَّد جيشه خسائر كبيرة[48]. ومع بداية عام 1221هـ/ 1806م واصل الباي حملته مُتتبّعًا قبيلة بني عامر التي تحالفت مع الدرقاوي إلى جانب أولاد الزائر فطاردهم وهزمهم بتسالة[49]، ولم يَنجُ من درقاوة سوى القليل منهم، حيث تمّ القضاء على عدد كبير منهم، وتمَّ أسر بعضهم وتشتُّت البعض الآخر على ولهاصة وجبل تزارة، وفَرَّ ابن الشريف مع قلّة من جيشه إلى اليعقوبية[50]، ولمّا انتهت المعركة جُمِعت الرؤوس المقطوعة في ذلك اليوم من درقاوة وبني عامر، فكانت ستمائة رأس بَعثَها الباي كلّها للجزائر[51].

بعد هذه الانتصارات خلال عام 1221هـ/ 1806م، سار الباي المقلش إلى تلمسان أين عقد الصلح بين سكّانها الحضر والكراغلة وأقام بها أيّامًا، ثم عاد إلى وهران ومعه صهره

45 : الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص: 315.

46 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 53.

47 : لقد أشار المزاري أنّ حسن خوجة ذكر في "درّ الأعيان" بأنّه رأى الجندي يأتي بثلاثة رؤوس أو أربعة ويضعها بين يدي الباي، ممّا يدلّ على صرامة سلطة البايلك في التّعامل مع المتمرّدين والثائرين. لتفاصيل أكثر يرجى العودة إلى: الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص: 315.- مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 53.

48 : الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص: 316.

49 : "المصدر نفسه"، ص-ص: 317- 318. –مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 53.

50 : محمد بن يوسف الزياني، "المصدر السابق"، ص: 220.

51 : الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص: 319. –مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 91.

قائد تلمسان أبو الحسن علي قارة بغلي فأقام بها شهرا، ثم جهّز جيشه وهاجم قبيلة مجاهر لخيانتهم له، فأوقع بهم وبالدرقاوي هزيمة شنيعة[52].

وتعدّدت المعارك بين الدرقاويين والعثمانيين في مواقع أخرى مختلفة، فقد انتصر الباي المقلش كذلك على الدرقاويين بعين السدرة عام 1221هـ/ 1806م بسبب مهاجمة الدرقاوي لسهول غريس وإفساده لزرعها، وتزامن ذلك مع وصول زعيم الثورة بايلك قسنطينة وهو ابن الأحرش[53] الذي تحالف مع ابن الشريف لمواجهة الباي، لكنّه هزمهم وقتل منهم الكثير بمساعدة قبائل الحشم والبرجية التي كان لها دور كبير في هذا الانتصار على الدرقاويين[54].

كما انتصر الباي المقلش على الدرقاويين في معارك أخرى كثيرة حدثت عام 1222هـ/ 1807م منها "معركة التوتة" بوادي العبد، "وجديوية" التي انهزم فيها الدرقاوي مع جيشه حيث بلغ عدد القتلى منهم حوالي ألف درقاوي[55]. ضف إلى ذلك معركة "تافنة" التي تكبّد فيها الدرقاوي خسائر كبيرة، لدرجة أنّها سمّيت ب: "يوم ابن الأحرش" نتيجة موت جماعة كبيرة من طلبته بها[56].

هذا وقد كان الدرقاوي كلّما انهزم في معركة إلاّ وظهر من جديد في منطقة أخرى بجيوشه مهدِّدًا سلطة العثمانيين، لكن الباي المقلش كلّما سمع بالدرقاوي في منطقة إلاّ واتّجه إليه وهزمه وفرّق جيشه، وبالرغم من هذه الانتصارات التي حقّقها إلاّ أنّه قُتِل بأمر

---

52 : محمد بن يوسف الزياني، "المصدر السابق"، ص-ص: 220-221. ينظر أيضا: الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص-ص: 320-322. ومسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 92.

53 : ابن الأحرش: هو الشيخ الحاج محمد بن عبد الله بن الأحرش الملقب بالبودالي مغربي الأصل، مالكي المذهب، درقاوي الطريقة، نال شهرة كبيرة بعد مشاركته مع المصريين في مواجهة الحملة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت على مصر سنة 1798م، حيث كان ذلك وهو في طريق عودته من الحج، ليتوجّه بعدها إلى قسنطينة التي مكث بها، ثم إلى جيجل أين استطاع الاستيلاء على سفينة صيد المرجان التابعة للشركات الفرنسية بالقالة في جوان 1803م، وبهذه الطريقة استطاع التقرّب من مريدي ومرابطي الطريقة الدرقاوية، فعمل على نشر تعاليمها، ثم قاد الثورة الدرقاوية في الشرق الجزائري ضدّ السلطة العثمانية. ينظر: زينب جعني، "المرجع السابق"، ص: 129.

54 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص-ص: 94-95. — الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص- ص: 322-323.

55 : الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص: 324.

56 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص 96.

من باشا الجزائر، وتمَّ تعيين مكانه الباي مصطفى العجمي للمرة الثانية سنة 1222هـ/1807م[57].

وبعدما تولّى الباي مصطفى العجمي الحكم ثار عليه درقاوة في بلاد "فليتة" فهزمهم شرّ هزيمة، ولم يَنجُ من درقاوة سوى القليل منهم، ثم عاد الباي بعدها إلى وهران أين مكث بها أيّامًا ليأتيه الخبر بظهور الدرقاوي وجيشه من جديد في "مرغوسة"، فأسرع الباي اتّجاهه وهزمه، وتمكَّن من قتل العديد من أتباعه وغنم الكثير من أمواله[58]. ثم اتّجه بجيشه نحو قبائل "المجاهر" المتواجدة على ضفاف نهر الشلف لتحالفهم مع الدرقاوي[59]، وهناك أتاه الخبر بأنّ الباشا ولاّه خزناجيا بالجزائر، وتمّ تعيين مكانه الباي محمد بن عثمان[60].

اهتمّ هذا الأخير بالقضاء على درقاوة وأتباعهم بطريقة جديدة تقوم على جمع المعلومات عن أتباع الطريقة الدرقاوية ثمّ مباغتتهم فرادى[61]، كما استخدم أساليب جديدة في تعذيب من يظفر به منهم كاقتلاع الأعين وقطع الرؤوس والشنق، بل وحتى أولئك المشكوك فيهم ولو عن طريق الوشاة، حتى أنّه سار من يحسد أحدا وشى به عنده وادّعى عليه مَحبَّة الدرقاوي فإنّه ينتقم منه فورا[62]. ثم اتّجه بعدها هذا الباي نحو قبيلة "اليعقوبية" التي تحالفت مع الدرقاوي فهزمهم مع أواخر عام1222هـ / 1807م، وتمكّن من قتل العديد من أتباع الدرقاوي[63].

وبالتالي تشتَّت أتباع الدرقاوي وانفصلوا عنه وأعرضوا فكلّما اتّجه إلى مكان إلاّ وفَرُّوا منه، حيث قصد بلاد الأحرار سنة 1809م فطردوه، فانتقل بعدها إلى عين ماضي

57 : "المصدر نفسه"، ص- ص: 96-97. — الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص- ص: 325-326.

58 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 97.- الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص: 326.

59 : Adrien Delpech, Op. cit, p: 56.

60 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 97.

61 : صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514- 1830، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص: 206.

62 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 98. - الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص 328.

63 : الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص: 329.

والأغواط، غير أنّه لم يَجِد تجاوبًا من سكّانها الذين أبعدوه لمّا علموا مقصده عندهم[64]. الأمر الذي جعل من ابن الشريف في الأخير يلتجئ إلى قبيلة "بني يزناسن" الذين استجابوا لطلبه[65]، فتزوّج من ابنة الشيخ بوترفاس الدرقاوي وهو من قبيلة ترارة، ثم اختفى بعد ذلك[66].

وبعد اختفاء ابن الشريف الدرقاوي عن الأنظار قام صهره الشيخ بوترفاس سنة 1813م بجمع قبائل الجهة الغربية في جبل ترارة بُغية التمرّد ضدّ السلطة الحاكمة، لكن الباي بوكابوس لم يُعطه فرصة تنظيم قوّاته حيث سار إليه وخرَّب قريته بالكامل، ولمّا فعل ذلك به قال الشيخ أبي ترفاس: "أيها الباي لما فعلت بنا هذا ونحن ضعفاء الناس، فقال له إنّه صهرك درقاوي فأنت مثله وأحوالك ببداية"[67].

وقد عرفت حملة الباي هذه بحملة الثلج لأنّ الثلوج تساقطت بغزارة عندما كانت الحملة في طريق عودتها وبالتحديد بوادي تافنة، أين ألحقت تلك الثلوج المتساقطة بالمحلة أضرارا بليغة، حيث ماتت العديد من خيول الجنود ممّا أدّى إلى اضطراب الجيش وتشتّته، وبعد وصول الباي إلى تلمسان مكث بها أيّامًا ثم سار منها إلى وهران[68].

وبالرغم من تلك الهزائم التي لحقت بدرقاوة على يد الباي بوكابوس حاول الدرقاويون التحرّك مرّة أخرى في عهد الباي الجديد علي قارة باغلي، لكنّه هزمهم وانتصر عليهم من جديد في "بني مراد" سنة 1813م[69]، وقد مات في هذه المعركة آغا الدوايرقدور الصغير بن إسماعيل وقائد الزمالة محمد بن قدور[70]. ثمّ قام الباي بالسير من جبال ترارة إلى

---

64 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 98 .- الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص: 329.

65 : Adrien Delpech, Op. cit, p: 57.

66 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 98.- محمد بن يوسف الزياني، "المصدر السابق"، ص: 230.

67 : محمد بن يوسف الزياني، "المصدر السابق"، ص: 230. — الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص- ص: 332- 333.

68 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص:102.- الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص :333.

69 : Adrien Delpech, Op. cit, p: 58.

70 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 107.

تلمسان فوهران، وبذلك تم القضاء على ثورة الدرقاوي[71]، أمّا نهاية ابن الشريف فما زال يكتنفها الغموض بسبب الاختلاف في الروايات كَوْنه قُتِل بعد هذه المعارك، أم بقي على قيد الحياة.

2- نتائج وآثار ثورة ابن الشريف الدرقاوي:

كان لثورة ابن الشريف آثار وخيمة انعكست على أوضاع البلاد بشكل كبير ويتمثّل ذلك في:

- إضعاف نفوذ البايلك بالأرياف وازدياد عزلة المدن، كما شجّعت القبائل على عدم دفع الضرائب، وهو ما يؤكِّده ناصر الدين سعيدوني حيث يقول: "في هذه الظروف المتأزمة اقتصاديا والمضطربة اجتماعيا، تحوّلت المدن الجزائرية إلى بيئات منكمشة على نفسها متخوِّفة من سكان الريف القريبين منها، كما غدا الريف الجزائري مجالاً مغلقًا على نفسه يكاد يفقد صلته بالمدن وينقطع تفاعله مع سكانها، فأصبح منكفئا على نفسه وغير مستعد للتعامل مع السلطة المركزية، بعد أن تحوّل أغلب سكانه المؤطرين بشيوخ الزوايا إلى موقف عدائي صريح من إدارة البايليك والمتعاملين معها... في مثل هذه الأحوال أصبحت الظروف مهيأة في الجزائر لانهيار داخلي، أو لوقوعها ضحية عدو خارجي، وبالفعل كان الغزو الفرنسي 1830م"[72].

- انتشار الفوضى والاضطرابات في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وانعدام الأمن والاستقرار.

- ازدياد الخلاف بين الأتراك الحاكمين وبين الرعيّة المحكومين نتيجة لسياسة القمع التي اتّبعها الأتراك اتّجاه القبائل المساندة المتعاطفة مع الثوار[73]، كما أنّ العلاقة التي بلغت ذروتها في التردّي بين السلطة التركية الحاكمة وبين المتصوفة قد ساهمت بشكل كبير في التشنّج واتّساع الهوة مع كافّة الرعية، وذلك لِما للمتصوفة من أتباع ومريدين ومتعاطفين معهم داخل المجتمع، حتى صار الجميع يسأل الله أن يُزيل عنهم ظلم الأتراك[74].

---

71 : Adrien Delpech, Op. cit, p: 58.

72 : ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر الجزائري، مؤسسة جائزة البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2000، ص-ص: 121- 122.

73 : مختار بونقاب، "المرجع السابق"، ص-ص: 140- 141.

74 : محمد شاطو، السلطة العثمانية في الجزائر وعلاقتها بالطرق الصوفية 1792- 1830، المواقف، جامعة معسكر، العدد: الثالث، ديسمبر 2008، ص: 169.

كما ساهمت ثورة درقاوة في إضعاف النظام العثماني بالجزائر رغم أنّها لم تُحقِّق هدفها الرامي إلى الإطاحة به، إلاّ أنّها مهّدت الطريق لسقوط الجزائر في يد الفرنسيين بعد سنوات قليلة. كما أنّها استطاعت حتى التأثير على الحكّام أنفسهم مثل الباي بوكابوس الذي تمرَّد حتى هو على سلطته، وتحالف مع سلطان المغرب مولاي سليمان، هذا ما أدّى بالباي الذي خلفه إلى الانتقام منه بسلخ رأسه حيًّا وحشوه بالقطن، وإرساله إلى مدينة الجزائر[75].

هذا بالإضافة إلى أنّ ثورة درقاوة قد أفسحت المجال للسلطان المغربي مولاي عبد الرحمن لمهاجمة إقليم فجيج عام 1805م، وقورارة وتوات عام 1808م على عهد الباي المقلش[76].

كما كانت الثورة الدرقاوية التي دامت نحو10 سنوات وبالاً على المقاطعة الغربية وسببًا في تخريب شامل للحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها، فقد أدّت إلى هجرة العديد من أتباع درقاوة نحو الخارج لا سيما المغرب الأقصى خوفًا من معاقبة الأتراك لهم قصد الانتقام، وهجرة بعض العلماء حتى لا يتّخذوا موقفًا من الصراع[77].

هذا وقد هاجرت العديد من القبائل الجزائرية إلى المغرب الأقصى، حيث قام بايات وهران بإخلاء أراضيها وفي هذا السياق يقول مسلم بن عبد القادر الوهراني: "... بنو عامر ترك أوطانهم قفرة لا يلقي فيها سالكها أنس ولا أنيس إلاّ البوم والذئاب تقاوى من فقد الأنيس، وأهلها دخلوا المغرب وفارقوها من غير اختيار ..."[78]، ويفهم من هذا القول أنّ قبائل بني عامر قد أُرغمت على الهجرة من الوطن بواسطة الإكراه.

وزيادة على هذا فقد كانت الثورة سببًا في سقوط العديد من الضحايا من الجانبين، حيث ذهب ضحيّتها الكثير من الناس من مختلف الفئات لا سيما العلماء، نذكر منهم كاتب الباي محمد الكبير الشيخ أحمد بن هطال التلمساني، وقدور بن إسماعيل آغا الدواير[79].

أمّا من الناحية الاقتصادية فقد أدّى اضطراب الأحوال وعدم الاستقرار إلى تعطيل الصناعة وإفساد الزرع، وركود التجارة الداخلية لانعدام الأمن وفقدان الاستقرار، وكثرة

---

75 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 28.

76 : "المصدر نفسه"، ص- ص: 54- 55.

77 : مختار بونقاب، "المرجع السابق"، ص141.

78 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 93.

79 : Adrien Delpech, Op. cit, p: 58.

اللصوصية وقطاع الطرق فقلّت المؤونة وحدثت مجاعة عانى منها سكان الأرياف والمدن على حد سواء[80]، وهو ما دفع بعضهم بالقول: "هكذا كانت الثورة الدرقاوية .... سببا في تقتيل مئات من أبناء الوطن، وفي استنفاد الطاقات الحربية التي كانت خير قوة تعدّ لمدافعة الإسبان بوهران... وخير قوة كان يمكن أن ترصد لرد جيوش الاحتلال الفرنسي فيما بعد"[81].

كما تجدر الإشارة إلى أنّ هذه التمرّدات قد أدّت إلى خراب المؤسسات التعليمية وتشريد طلبتها بعد أن قُتِل علماؤها ومشايخها بالرغم من وقوف بعضهم في صفوف العثمانيين، وخير دليل على ذلك معارضة الشيخ أبو راس الناصر لثورة درقاوة التي اعتبرها وبالاً على البلاد والعباد، إلاّ أنّه لم ينجو ككثير من علماء عصره من تُهمة مساندته لها وتعاطفه مع الدرقاويين، حيث عُزِل من جميع مناصبه الرسمية، الأمر الذي دفعه إلى تأليف كتابه الذي سمّاه "درء الشقاوة في حرب درقاوة"[82].

وإذا كان العالم أبو راس الناصر قد أبدى معارضته لهذه الثورة، فإنّ عالمًا آخر نجده يُمجّد ويشيد بانتصارات العثمانيين على درقاوة بالغرب الجزائري إنّه مسلم بن عبد القادر الوهراني، ففي قصيدة أشاد بانتصارات العثمانيين في معركة "بني مريانن" على الدرقاويين، وبالدور الكبير الذي لعبه آغا الدوايرقدور الصغير بن إسماعيل البحثاوي وممّا جاء فيها:

جَزَى اللهُ جُلَّ النَاصِرِ بِالْبَوَاتِرِ ... قَدُورْ بَنْ إِسْمَاعِيلْ رَايَسْ الدَوَايِرِ
لِحِزْبِ الأَتْرَاكِ فِي جَمِيعِ المَعَارِكِ ... فَإِنَّهُ لَيْثُ الحَرْبِ لَيْسَ بِغَـادِرِ
وَزَادَ انْدِفَاعًا لَمَّا رَأَى رَأْسَ العَدَا ... خَلِيفَةَ ابْنْ الشَرِيفِ بِالقُرْبِ حَايِرِ
فَسُرَّ بِهِ البَايُ وَعَزَّ جَنَابَهُ ... وَأَدْنَاهُ مَنْزِلاً فِي كُلِّ الأَوَامِرِ[83]

ويفهم من هذا أنّ هؤلاء العلماء الذين ساندوا العثمانيين نالوا الحظوة والمكانة المرموقة لدى رجال الحكم، فتولّوا الوظائف الشرعية وأصبحوا محلّ احترام وتقدير من

80 : مختار بونقاب، "المرجع السابق"، ص141.
81 : مسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 55.
82 : محمد بوشنافي، موقف علماء معسكر من بعض القضايا السياسية للجزائر خلال العهد العثماني، مقال ضمن كتاب جماعي: معسكر: المجتمع والتاريخ، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية بجامعة معسكر، دار الرشاد للطباعة والنشر الجزائر، 2014، ص: 25.
83 : الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص-ص: 316- 317.

قبلهم[84]، ومن بين هؤلاء أيضا العالم حسن خوجة الذي عارض ثورة درقاوة وأعلن ولائه للعثمانيين، حيث يتّضح موقفه منها ومن زعيمها ابن الشريف الدرقاوي في هذه الأبيات التي نظَّمها بمناسبة معركة "أولاد الزائر"، والانتصارات التي حقَّقها الباي المقلش فيها على درقاوة، وممّا جاء فيها:

أَيَا عَسْكَرَ الأَعْرَابِ تَبَّ جَمِيعُكُمْ وَسَوْفَ تَرَوْا مَاذَا بِكُمْ سَيَصِيرُ
فَلاَ تَعْجَلُوا لِلْمَوْتِ هَا هِيَ دُونَكُمْ غَدَاتَ اللِّقَا مِنْهَا الرُؤُوسُ تَطِيرُ
فَتَبَّ أُمْرُؤٌ أَغْرَ افْتِرَاؤُهُ جَمْعَكُمْ وَبِيسَ فَصَوْبَ الرَأْيِ مِنْهُ عَسِيرُ[85]

وممّا تقدّم يمكن القول أنّ ثورة ابن الشريف الدرقاوي أنهكت بايلك الغرب وسكّانه وبهذا لم تزد البلاد أمنًا ورخاء، حيث زعزعت أمن البلاد، لكنّها من جهة أخرى نجدها قد وحَّدت صفوف السكّان المتذمّرين من السياسة الحاكمة، فكانت منفذًا للتّعبير عن سخطهم على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية التي كانت تسود البلاد من جرّاء الحكم العثماني الفاسد خاصّة سياسة الضرائب المجحفة[86]، وبالرغم من أنّ هذه الثورة كانت تحمل شعارات دينية إلاّ أنّها وجدت الكثيرين ممّن يلتفّون حولها.

ضف إلى ذلك الدور الكبير الذي لعبته القوى الخارجية في تعزيز هذه الثورة ودعمها ماديًا، فها هو مثلا سلطان المغرب مولاي سليمان 1792-1822م يقوم بدعم وتأييد ومؤازرة أتباع الطريقة الدرقاوية للوقوف ضدّ الحكّام العثمانيين في الجزائر في محاولة منه لإضعاف شوكتهم، والذي كان حلم المغاربة الدائم منذ سقوط الدولة الموحدية. خصوصا أنهم كانوا يرفضون منذ البداية التواجد العثماني على الشمال الإفريقي ورفضوا سيادتهم للعالم الإسلامي عامة، وحاولوا ضم الجزائر وتونس تحت رايتهم، فقناعة المغاربة بشرعيتهم في الحكم في منطقة المغرب بدلا عن العثمانيين نظرا لنسبهم الشريف جعلهم يستغلون المساندة الشعبية لهم بالجزائر، لذا اعتمدوا على الطرق الصوفية التي كانت تنشط بالجزائر والتي كانت على اتصال بالطرق الأم بالمغرب، حيث قامت بنشر سياسة سلاطين المغرب الرامية إلى استمالة العائلات الكبرى بالجزائر كون أن للمغرب الأقصى أطماع

84 : وللإشارة فقد ذكر المزاري أنّ علماء الإيالة قد استَفتُوا أهل الحلّ والعقد بتطوان بالمغرب الأقصى بشأن درقاوة وثورتها ضدّ الأتراك، حيث كان ردُّهم بأنّ الدرقاويين مبتدعة وزنادقة ومخالفين لسنّة الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم ويجب تعذيبهم. للمزيد عن هذا الموضوع ينظر: "المصدر نفسه"، ص: 303.

85 : الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص: 319.

86 : زينب جعني، "المرجع السابق"، ص 136.

قديمة في غرب الجزائر وتلمسان بصفة خاصة، وهكذا أصبحت إيالة الجزائر بمثابة حصن يحمي سياسة السلاطين العلويين من خطر العثمانيين[87].

لكن هذا لا يمنع من وجود استعداد لدى الرعية للثورة ضدّ السلطة فهي تعبير صادق عن سخط الرعية وعدم رضاها عن الأوضاع السائدة، ويبدوا أنّها موروثة عن وضع اجتماعي متردّي وتأزّم اقتصادي خطير عانى فيه المجتمع الفقر والظلم والحرمان والتقسيم[88]، وهذا ما يفسِّر انتشار تلك الثورة والتفاف النّاس حولها.

الخاتمة:

وصفوة القول أنّ الثورة قد فشلت في تحقيق أهدافها الرامية إلى الحدّ من تعسّف الأتراك وظلمهم، رغم الأساليب التي اعتمدها ابن الشريف الدرقاوي لكسب القبائل بالمنطقة الغربية، كما أنّ هذه الانتفاضة لم تنجح في القضاء على الحكم العثماني في الجزائر، إلاّ أنّها ساهمت في إضعافه. فقد فقدت السلطة الحاكمة بسببها ثقة القبائل الموالية لها حتى ضعفت عن مقاومة الفرنسيين. ومات بسببها عشرات الآلاف، وكثير من شيوخ القبائل والنخبة والعلماء، وعدة بايات منهم من قتل، ومنهم من عزل، ومنهم من سجن.

كما اعتبرت ثورة درقاوة ببايلك الغرب من أهم وأخطر الثورات على العثمانيين فقد ساهمت في اشعالها عوامل داخلية، وأطراف خارجية كادت أن تعصف بحكم العثمانيين في الجزائر لولا السياسة التي اتبعها الحكام في التفريق بين الأنصار والأتباع من أكبر القبائل. وزيادة على هذا فقد أضعفت الثورة نفوذ البايلك بالأرياف، وأقنعت سكان الريف بإمكانية الثورة على سلطة البايلك، ورفض دفع الضرائب والمطالب المخزنية، وعدم الرضوخ للأحكام الجائرة، فكانت بمثابة ثورة شعبية وانتفاضة فلاحية، وتعبير صادق عن سخط الرعية وعدم رضاها عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة في عهد الحكام العثمانيين.

---

87 : "المرجع نفسه"، ص: 130. ولتفاصيل أكثر عن الموضوع يرجى العودة إلى: أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2011، ص: 102.

88 : مختار بونقاب، "المرجع السابق"، ص: 136. —وللمزيد من الحيثيات عن طبيعة الحركة الدرقاوية يرجى العودة إلى: مختار بونقاب، تاريخ الطريقة الدرقاوية في الجزائر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران، 2001- 2002، ص: 93.

قائمة المراجع:

- بونقاب مختار، تاريخ الطريقة الدرقاوية في الجزائر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، وهران: كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة وهران1 أحمد بن بلة، 2001- 2002.
- بونقاب مختار: "انتفاضة درقاوة في بايليك الغرب الجزائري 1802- 1816" ، **مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ**، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بجامعة معسكر، معسكر، العدد: 03، 2008، من ص: 135 إلى ص: 142.

- بوشنافي محمد: "موقف علماء معسكر من بعض القضايا السياسية للجزائر خلال العهد العثماني"، مقال ضمن كتاب جماعي: **معسكر: المجتمع والتاريخ**، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية بجامعة معسكر، دار الرشاد للطباعة والنشر، الجزائر، 2014، من ص: 13 إلى ص: 27.

- جعني زينب: "ثورة ابن الأحرش في بايلك الشرق 1800- 1807"، **عصور الجديدة**، جامعة وهران، وهران، العدد: 18، خريف- أكتوبر 1436هـ- 1437هـ/ 2015، من ص: 129 إلى ص: 140.
- الوهراني مسلم بن عبد القادر، تاريخ بايات وهران المتأخر أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم: رابح بونار، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974.
- الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978.
- الطاهر فيلالي مختار، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، الجزائر: دار الفن الغرافيكي للطباعة والنشر، د.ت.
- مكحلي محمد، ثورات رجال الزوايا والطرقية في الجزائر خلال العهد العثماني 1807- 1827، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، سيدي بلعباس: كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي اليابس، 2003- 2004.
- المزاري الآغا بن عودة، طلوع سعد السعود: في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج1، تحقيق: يحي بوعزيز، الجزائر: دار الغرب الإسلامي، 1990.
- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر الجزائري، مؤسسة جائزة البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2000.

- عباد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي 1514- 1830، الجزائر: دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، 2011.
- الراشدي ابن سحنون، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، الجزائر: مطبعة البعث، 1973.
- شويتام أرزقي، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830، الجزائر: دار الكتاب العربي، 2011.

- شاطو محمد: "السلطة العثمانية في الجزائر وعلاقتها بالطرق الصوفية 1792- 1830"، **المواقف**، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بجامعة معسكر، معسكر، العدد: الثالث، ديسمبر، 2008، من ص: 159 إلى ص: 171.

-Delpech Adrien : "Resume historique sur le soulèvement des derk'aoua de la province d'Oran", **Revue Africaine**, N° : 18, 1874.

-Depont Octave, Coppolani Xavier, Les confréries religieuses musulmanes, Alger : Adolphe Jourdan, 1897.

- Rinn Louis, Marabouts et Khouans, Alger: Adolphe Jourdan, 1884.